كلية : الآداب

القسم او الفرع : التاريخ

المرحلة: الثالثة

أستاذ المادة : أ.د. احمد راشد

اسم المادة باللغة العربية : تاريخ العراق الحديث

اسم المادة باللغة الإنكليزية : Modern History of Iraq

اسم المحاضرة الثالثة باللغة العربية: الارض والزراعة

اسم المحاضرة الثالثة باللغة الإنكليزية : Land and agriculture

الارض والزراعة :

كان انهيار الدولة العباسية نكسة في الحالة الحضارية التي عليها العراق آنذاك، فقد فتح الباب امام غزوات اجنبية عاتية، ادنى منه حضارة واقرب الى الحالة البدائية، وادى الى تقلص في دور المدينة وفتور في نشاطاتها الاقتصادية الحرفية والتجارية، اخذ بالظهور في الحقبة اللاحقة وبخاصة في القرن الرابع عشر، حين ضعفت المدينة وقل نشاطها وطغت العلاقات الاقطاعية على العلاقات التجارية المدنية حيثما كان بإمكان الحكام الجدد ممارسة سيطرتهم بالقوة المسلحة، اما المناطق الاخرى وهي التي تمثل مساحات كبيرة من ارض العراق فقد توزعتها القبائل القوية فيما بينها لتمارس عليها اقتصاداً رعوياً غالباً.

لقد اقتصرت نظرة الحكام الى الريف على انه مصدر ثروة يمكن استثمارها في تمويل عملياتهم العسكرية ودفع نفقات جيوشهم الاجنبية، فوزع المغول منذ مطلع القرن الرابع عشر اراضي العراق على جندهم بدل رواتبهم، ولكنهم احتفظوا جرياً– على التقليد الاسلامي برقبة الارض للدولة، بيد ان حدث في عهد السيطرة– الجلائرية ان اخذ نوع من الاقطاع ينتشر ولو بحدود ضيقة عرف باسم (الادرار) وهو يمنح على سبيل الهبة للأشخاص الذين يقدمون للدولة خدمات معينة، ولا يشترط ان يكونوا من العسكريين ليكون بمثابة ا رتب لهم، والمهم في هذا الادرار ان صاحبه كان يمنح من الاعفاءات والامتيازات ما خوله لأن يكون ملكية مطلقة، وبخاصة ما عرف بإقطاع(ادرار مقاصة) فبموجب هذا الاقطاع تبقى الارض او القرية ملكاً مؤبداً لصاحبها ولذريته من بعده ولا يدفع عنها اية ضرائب.

والى جانب هذا النوع بقيت بعض النظم الاقطاعية القديمة، مثل الاقطاع المستند الى احياء الارض الموات، وبموجبه تصبح الارض ملكاً لمستصلح الارض ولذريته من بعده، وتعرف باسم(القرار الشمسي)، كما استمر الحفاظ على الملكيات الموقوفة على المساجد والمدارس، غالباً وتعد وقفية (الخواجة امين الدين مرجان) على منشآته التي اقامها ببغداد(المدرسة المرجانية، دار الشفاء، خان مرجان) من اضخم الوقفيات المعروفة في تاريخ العراق وادقها.

لم يهتم الجلائريون بالنشاط الزراعي الا بما يكفي لاعاشة قواتهم، ولذلك اقتصرت عنايتهم على بغداد والمناطق المحيطة بها حتى ان هذه المنطقة دفعت سنة ٧٦٥ هـ/ ١٣٦٣ م نصف مجموع موارد العراق آنذاك، مما دل على ان النشاط الزراعي اخذ في هذه الحقبة بالانحسار الى المناطق القريبة من المدن الرئيسة طلباً للامن والحماية، اما اصلاح الانهار وتطهيرها وزيادة الرقعة الزراعية فلم تلق من اولئك الغزاة اهتماماً الا في حالات نادرة، وزاد من تفاقم الاحوال الاقتصادية تكرر وفود الجراد ووباء الطاعون، وتعاقب الغزوات الاجنبية وكثرة التطاحن بين القوى الغازية.

القرة قوينلو ١٤١٠ – ١٤٦٧ م :

بسقوط بغداد على يد شاه محمد بن قره يوسف اصبح العراق جزءاً من دولة عاصمته تبريز عرفت في التاريخ باسم(الخروف الاسود) وكانت تسمى(البارانية) نسبة الى قبائل الغز التركمانية التي نزحت من تركستان الغربية الى جهات اذربيجان وسيواس في اواخر القرن الثالث عشر الميلادي، وشاع اسمها(قرة قوينلو)واصبح اصطلاحاً خاصاً بها لاشتهارها باقتناء(الشياه السود)او لأن رايتها تحمل شارة(خروف اسود .

تعاظم شأن القبيلة ايام زعيمها(بي رام خواجة بن تورمش)واصبحت امارة ذات قوة ونفوذ ولاسيما بعد تحالفها مع الدولة الجلائرية في عهد السلطان اويس (٧٧٦– ٧٥٧ هـ/ ١٣٧٤ – ١٣٥٦ م)وعلى اثر وفاة هذا السلطان عمت الفوضى وشاعت الفتن والاضطرابات فانتهز بي رام الفرصة واستولى على الموصل وسنجار.

مرت على الامارة ابان الغزوات التيمورية في اواخر القرن الرابع عشر سلسلة من الانتكاسات، واضطر اميرها قره يوسف بن قره محمد حفيد بي رام الذي تولى الامارة في ٧٩٢ هـ/ ١٣٩٠ م، ان يلجأ الى الاناضول وبعد ان تمكن من السيطرة مؤقتاً على بغداد في ١٤٠٢ م، اجبر على الفرار الى الشام، وعلى اثر موت تيمورلنك وانفراط عقد امبراطوريته وتفككها، عاد قره يوسف الى اذربيجان في الوقت الذي كانت الدولة الجلائرية تعاني من الانحلال والانحسار، وجاءتها الضربة القاصمة على يد قره يوسف حينما اوقع هزيمة كبرى بجيش السلطان احمد الجلائري قرب تبريز في ٨١٣ هـ / ١٤١٠م واستولى ابنه شاه محمد على بغداد في السنة التالية، متمتعاً باستقلال اداري واسع طوال ولايته التي دامت ثلاثة وعشرين عاماً.

لم يؤل قره يوسف اهتماماً بالعراق حتى وفاته في ٨٢٠ هـ/ ١٤٢٠ م وكان معنياً بتوسيع ممتلكاته ومقارعة بقايا الامبراطورية التيمورية في اي ران في عهد(شاه رخ)، ولكن بغداد اصحبت هدفاً له حينما امتنع ابنه شاه محمد عن تقديم الاموال فحاصرها في سنة ٨١٨ هـ/ ١٤١٨ م، واجبر ابنه على تسليم الاموال، يقول المؤرخ ابن تغري بردي الذي كان قريباً من ذلك العهد(ت ٧٨٤ هـ)عن عهد هذه السلالة بعد موت قره يوسف.." :نسأل الله تعالى ان يلحق به من بقي من ذريته فأنه وأولاده كانوا سبباً لخراب بغداد وغيرها من العراق، وهم شر عصبة، لا زالت الفتن في ايامهم ثائرة والحروب قائمة الى يومنا هذا"...، واحدث موت قره بوسف ارتباكاً وفوضى واسعة شارك فيها اولاده، و ا زدت في ارتباك الاوضاع محاولة الامير التيموري شاه رخ الاستيلاء على تبريز، الا ان الامير(الاسكندر بن قره يوسف)تمكن بعد معارك دامية من السيطرة على الموقف وثبت حكمه في ماردين واذربيجان في ٨٢٤ هـ/ ١٤٢١ م.

وتعرضت بغداد الى هجوم واسع في ٨٣٨ هـ/ ١٤٣٤ م شنه(اسبان بن قره يوسف)في محاولة لانتزاع الولاية من اخيه محمد شاه، وبعد معارك طاحنة سيطر اسبان على بغداد والحلة وواسط، وهرب محمد شاه ثم قتل، وحكم اسبان بغداد بصورة مستقلة عشر سنوات حتى وفاته في ٨٤٨ هـ ١٤٤٤ م، فنصب انصاره ولده الصغير(فولاذ)حاكماً، وطمع السلطان(جهان شاه)حاكم امارة القره قوينلو بمد سيطرته المباشرة عليها، فقاد جيشه وحاصر بغداد في ٨٤٩ هـ/ ١٤٤٥ م، مدة ستة اشهر تمكن في نهايتها من دخولها، فخربها وسجن فولاذ الذي لم يلبث ان توفي في سجنه، وربطت بغداد مباشرة بتبريز، ووليها ابن السلطان جهان شاه سنة واحدة، ولى بعدها ابنه الاخر(بير بوداق.)

اطمعت اضطرابات الاوضاع والصراع المتواصل بين القرة قوينلو وبقايا الامبراطورية التيمورية، بير بوداق على الاستقلال عن حكم ابيه السلطان جهان شاه الذي ولاه بغداد، فسار جهان شاه الى بغداد وحاصرها في ٨٦٩ هـ/ ١٤٦٤ م مدة تزيد على السنة اضطر فيها السكان الى اكل الجيف والبحث عن فتات الطعام في المزابل، وتعرضت مع ضواحيها الى خراب مدمر، واخيراً نجح جهان شاه في دخول بغداد في ٨٧٠ هـ/ ١٤٦٦ م حيث امر باعدام ابنه، وولي عليها(بير محمد الطواشي بن زينل)وعاد الى تبريز.

واغتنم(اوزون حسن الطويل)زعيم امارة تركمانية اخرى مركزها ديار بكر حالة الانشقاق الذي حدث بين جهان شاه وولده، وما رافق ذلك من اضطراب فمد سلطانه الى المناطق المجاورة التابعة للقرة قوينلو، وفي المعركة التي جرت بين الامارتين في ديار بكر سنة ٨٧٢ هـ/ ١٤٦٧ م دحر جهان شاه ولقي مصرعه، كما اسر ولداه(محمدي مرزا)و(ابو يوسف ميرزا)ثم سار حسن الطويل بعد انتصاره الى بغداد وحاصرها ولكن حاميتها قاومت، واضطر اوزون خسن الى رفع الحصار والتوجه الى تبريز للقضاء على(حسن علي)الذي كان قد تولى السلطة في تبريز بعد مقتل والده جهان شاه، وفر حسن علي الى همدان حيث انتحر في ٨٧٣ هـ/ ١٤٦٨ م، واستولى حسن الطويل على العاصمة تبريز وبذلك انتهت امارة القرة قوينلو.

اما بغداد فقد توفي واليها بير محمد الطواشي في ٨٧٣ هـ/ ١٤٦٨ م فتعاقب على حكمها واليان خلال سنة انتهت بتقدم جيش الاق قوينلو بقيادة(مقصود بن حسن الطويل)الذي دخل بغداد وقتل واليها.

الاق قوينلو ١٥٠٨ – ١٤٦٧ م:

وهي من الامارات التي اقامتها العشائر التركمانية النازحة من تركستان الغربية الى اذربيجان وجهات الاناضول في اواخر القرن الثالث عشر، وعرفت باسمها لاشتهارها باقتناء(الشياه البيض)، وكان لها هند بداية ظهورها قوة ونفوذ نظراً لاتباعها سياسة مؤيدة لتيمور لنك، وحصل زعيمها(قره عثمان) على مكانة مرموقة، وثبت اقدام امارته في ديار بكر، وفي عهد حفيده حسن الطويل ازدادت قوة الامارة ونافست غريمتها امارة القرة قوينلو وتمكنت من القضاء عليها في المعركة الحاسمة

التي دارت في ديار بكر عام ٨٧٢ هـ/ ١٤٦٧ م حينما صرع عاهلها جهان شاه، وضم لإمارته ممتلكاتها كافة ومنها العراق.

تولى ولاية بغداد في العهد الجديد مقصود بن حسن الطويل، ونال العراق شيئاً من الاستقرار والعناية، ولكن سرعان ما اشاع الارتباك في الامارة اثر وفاة حسن الطويل في ٨٨٢ هـ/ ١٤٧٧ م وخاصة في عهد خليفته(خليل)الذي لم يدم سوى اقل من سنة اظهر فيها تعسفاً، وانغماساً باللهو والترف، فاندلعت حركات التمرد، اذ ثار ابن عم السلطان خليل مراد بن جهانكير والي بغداد، وحاول احتلال

مدينة السلطانية الا انه اندحر امام قوات السلطان وقتل، والتف الامراء الناقمون على خليل حول اخيه (يعقوب)واسندوا ثورته في ديار بكر، فتشجع الامير يعقوب وتقدم بجيشه الى اذربيجان، وعند نهر خوى اوقع هزيمة ساحقة بقوات السلطان وقتله واعلن نفسه سلطاناً في تبريز عام ٨٨٣ هـ/ ١٤٧٨ م وظل يحكم حتى سنة ٨٩٦ هـ/ ١٤٩٠ م، وتمتعت الامارة خلال تلك الحقبة بشيء من الاستقرار.

وبوفاة يعقوب تجددت الاضطرابات وكثرت الحروب الاهلية بين مختلف الطامعين من السلالة الحاكمة، وادى ذلك الى تفكك سلطة الاق قوينلو، واصبح العراق اقليماً مهملاً من دولة مجزأة يتنافس فيها الطامعون لفرض سيطرتهم بالسلب تارة والقتل تارة اخرى، فقد خلف يعقوب ابنه(بايسنقر)وهو فتى في العاشرة من عمره، فطمع الامير(رستم بن مقصود)بالعرش ونجح في دحر بايسنقر ودخل العاصمة تبريز في ٨٩٧ هـ/ ١٤٩١ م، مجبراً السلطان على الفرار.

وتتابعت حركات التمرد والعصيان في عهد الغاصب الجديد ولم تنته الا بعد ان تمكن الامير(احمد) من احفاد حسن الطويل من دحره وقتله في ٩٠٣ هـ/ ١٤٩٥ م واعلن احمد نفسه سلطاناً، ولكن حكمه لم يدم اكثر من ستة اشهر قتل في نهايتها على ايدي الامراء الاخرين، واعلن ثلاثة من الامراء في وقت واحد انفسهم سلاطين وكان العراق وبلاد فارس من حصة(مراد)وهو احد هؤلاء السلاطين الثلاثة.

من هذا الاستعراض السريع للمنازعات والحروب الاهلية التي عمت الامارة يتبين لنا ان العراق في هذا العهد مر بسلسلة من الاضطرابات كانت جزءاً من فوضى عامة سفكت خلالها دماء غزيرة ارضاء لجشع المتنافسين وتسابقهم على السلطة ومحاولاتهم جمع وتكديس الاموال وصرفها على ملاذهم الخاصة، ولم يكن احدهم اذا ما نجح مؤقتاً في الوثوب الى الحكم يفكر بالقيام بأي اصلاح كأن يحفر ترعة او يشيد قنطرة او يصون سداً او يستصلح تربة او يرعى عالماً، تلك كانت بعيدة عن عقول هؤلاء الحكام الذي جاءوا في ظروف غير طبيعية، عانى فيها العراقيون كثيراً وكتب عليهم ان يحيوا حقباً من الفزع والحروب الاهلية استنزفت خيرات البلاد، ولكل هذا فليس من القريب ان نرى انهيار هذه الامارة على يد طامع جديد من سلالة اخرى هو(اسماعيل الصفوي)مؤسس الدولة الصفوية.